جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه وخبت
مصابيحه ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همذان
رحمه الله وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها وإلى عيسى بن هشام
روايتها وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف فأشار من إشارته حكم
وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع وإن لم يدرك
الظالع شأو الضليع فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتا
أو بيتين واستقلت من هذا المقام الذي فيه يحار الفهم ويفرط الوهم ويسبر
غور العقل وتتبين فيه قيمة المرء ويضطر صاحبه إلى أن يكون كحاطب
ليل أو جالب رجل وخيل وقلما سلم مكثار أو أقيل له عثار
فلما لم يسعف بالإقالة ولا أعفي من المقالة لبيت دعوته تلبية
المطيع وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع وأنشأت على ما
أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة
خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله

وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحتها به
من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف
الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب
المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية مما أمليت جميعه على
لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحرث بن همام
البصري وما قصدت بالإحماض فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد
طالبيه ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين
أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم
المقامة الكرجية وما عدا ذلك فخاطري أبو عذرته ومقتضب حلوه
ومره هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله تعالى سباق
غايات وصاحب آيات وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة ولو أوتي
بلاغة قدامة لا يغترف إلا من فضالته ولا يسري ذلك المسرى
إلا بدلالته ولله در القائل على زحام ونحيب
شعر

Copyright © King Saud University